

كلمة الأستاذ جورج غانم

رئاسة فوق الخطوط الحمر

الارتقاء الى سدة الرئاسة في لبنان ومغادرتها، له منذ نصف قرن ونيّف، طقوس شكسبيرية كتبها التاريخ بحروفه التي لا يغيّب عنها لون الأسرار والمأساة والدم . كلّ من ارتفع دخل الى حلقات كواليس ماكبت والملك لير وقصص الساحرات واللّعنات والألغاز .

في جمهورية أمين الجميل أضيفت عناصر المأساة وارتسمت التحوّلات وشماً دائماً على جسد التاريخ. وكما البطل في تراجيديا يونانية، توحد في القدر الصعب لبنان الذبيح وأمين الجميل الرئيس، ابن العائلة التي ارتخت لحياتها بدماء خمسة من ابنائها، طليعهم رئيسشقيق الرئيس، وخاتمهم بيار الشهيد نجل الرئيس. أمّا هوفاختبر الحياة والموت في وقت واحد، واندمج زمان في واحد، زمن للأمل وآخر لخيبة الأمل .

كان أمين الجميل ،أول رئيس لبناني يخلف رئيسين في أيام قليلة: الياس سركييس الذي أنهى ستّ سنوات من البطولة الصامتة، وبشير الجميل، طيفُ البطولة الهادرة الذي رسم في اثنين وعشرين يوماً عهداً كاملاً من الأحلام، وربّما منالواهام.

كانت القوات المتعدّدة الجنسيّات في بيروت، وكان اللبنانيون في جمهورية متعدّدة الجنسيّات والهويّات. كانا لاسرائيليون في بيروت وبعيدا والجبل والجنوب وبعض البقاع، وكان السوريون والفلسطينيون والحرس الثوري الإيراني الوافد حديثاً، في الباقي من الخريطة التي مزّقها حروبٌ متعاقبة: مسيحية-فلسطينية وسورية-لبنانية ومسيحية-إسلامية ثمّ مسيحية-سورية، مروراً بسورية-فلسطينية وسورية-لبنانية ومسيحية-مسيحية، بالإضافة الى حرب فلسطينية-إسرائيلية وسورية-إسرائيلية . كلّ ذلك تحت سقف الحرب الأميركية-السوفياتية الباردة، فكان على الرئيس الشاب ترميم دولة وبنائها أقوى من الاحتلال والدويلات، بركام دولة أضحت مساحتها في حدود مكتب الرئيس في القصر المهتمّ والمحاصر بحواجز اربيل شارون. غريباً بدا أمين الجميل في القصر الفارغ والحزين. فقد وصل اليه بربطة عنق سوداء، على متن مشروع إقليمي فُصل على قياس شقيقه الشهيد، ولم تكن له علاقة بمعادلاته الداخلية والخارجية، بل على العكس من ذلك، فقد كان النائب أمين الجميل متّهماً في بيئته

الحزبية، بعدم قطع الخطوط أبداً مع المسلمين والسوريين والفلسطينيين، اذ عبر الى بيروت الغربية المحاصرة خلال الاجتياح الاسرائيلي مرتين، والتقى ياسر عرفات والقيادة الفلسطينية، ونقل بطلب من ابو عمّار ارملة ابو حسن سلامه جورجينا رزق وطفلها من جحيم القصف الى ما كان يُعرف بالمنطقة الشرقية، ليواجه أسئلة بشير وغضب جهاز أمن القوات اللبنانية. كما أنّه لم يلتقِ القادة الإسرائيليين سوى على هامش مراسم تعازي شقيقه بشير. واحتفظ الرئيس الجميل برسالة معبرة من ابو أياد نشرها في المذكرات دون فيها القيادي الفلسطيني: أكرّر شكري لك، وقد أخبرت أولادي الليلة بأنّ هناك رجلاً كان خصماً ومقاتلاً شريفاً، حاول ان يبادر بحلول تحفظ من هذه المذابح، لكنّه لم يتمكّن. اذا عشنا والتقينا سنتذكّر هذا الحديث، والأترك هذه الرسالة عندك للتاريخ والمستقبل.

في المقابل، ورغم عدم الاعتراض السوري على الانتخاب الذي نقله ضابط المخابرات مُحمّد غانم في لقاء السيّارة عند تقاطع الدوّار-ضهور الشوير، فإنّ دمشق التي ربحت نقطة في مواجهة بشطب بشير، كانت تترقّب التطوّرات استعداداً للانقضاض واستعادة المبادرة بدعم من موسكو، في التصدي لقوات الحلف الأطلسي المنتشرة على شواطئ بيروت. كذلك كان الرئيس الجديد يعرف أنّ التوافق المصطنع على انتخابه عابرٌ وهشّ، وأنّ اسرائيل تُمسك بصاعق التفجير في الجبل بين الدروز والقوات اللبنانية التي كان من المفترض ان تكون داعمة للرئيس الكتائبي، فإذا برجالها يعاملونه كأنه حاملُ المشروع النقيض لقائدهم الشهيد، والرجل الذي حرّمهم مكاسب اعتبروها حقاً لهم .

رغم كلّ ذلك حاول تحقيق معجزة الفصل بين قوّة الموقف وضعف الموقع. لم يُرد للبنان الاستمرار في دور هاملت المتردّد الذي يقول نكون او لا نكون. ولم يكن الخيار أمامه إلا ان يقرّر ان يكون، فأطلق ما سمّاه معتمداً على الأميركيين .

كانت المهمة الاصبعب السعي لإخراج اسرائيل من لبنان عبر اتّفاق فرضه وزير الخارجية الأميركي جورج شولتز من دون ان يحميه، وربطته اسرائيل بشرط تعجيزي هو الانسحاب السوري المتزامن، وسمّاه الرئيس حافظ الأسد اتّفاق إذعان يجعل من لبنان محميةً إسرائيلية وعدواً لسوريا. وذكّر الأسد الوزير ايلي سالم في تهديد مبطن للجميل، باغتيال أنور السادات على يد شعبه لأنّه خان قضية مصر.

هكذا وُلِدَ الاتفاق المسموم ميثاً. اسرائيل أراحت سوريا بإعطاء الأسد حقّ النقض. والرئيس الجميل ردّ برسالةٍ جانبيةٍ مماثلة تؤكّد على أنّ لبنان في حلٍّ من الاتفاق، مدعوماً برسالةٍ من الرئيس الأميركي ريغان أعطته الحقّ في تعليق التزاماته في حال عدم انسحاب القوات الإسرائيليّة .

على مدى ثلاثٍ وثلاثين جولةٍ مفاوضات أنتجت ما عُرف باتفاق السابع عشر من أيار، تأكّد أمين الجميل بالوقائع والمناقشات مع الأميركيين والسوريين والأوروبيين والعرب، أنّ محطة التورط الأميركي في لبنان سنة ١٩٨٢، كانت لحظةً عابرةً فرضها الثلاثي الاسرائيلي بيغن - شارون-ايتان، وأنّ الولايات المتحدّة حاولت استثمار العملية العسكرية الإسرائيليّة لدفع مشروع الرئيس ريغان للسلام العربي -الاسرائيلي، وأنّ أميركا تريد الحلّ في لبنان لتصل الى التسوية في الشرق الأوسط. وعندما فشلت واشنطن واضطرت الى الانسحاب مع قوات الأطلسي بعد تفجير المارينز والدراكار الفرنسيين ونسف السفارة الأميركية وأقتراب الانتخابات الرئاسية الأميركية، عاد السوريون والإسرائيليون الى استراتيجية الخطوط الحمر التي نسقتها الدبلوماسية الأميركية سنة ١٩٧٦ لترتيب حدود التدخل العسكري السوري وجعلت لبنان كو ندومينيوم سوري-إسرائيلي، الغاية منه احتواء منظمة التحرير الفلسطينية وابعاد خطّ الاحتكاك العسكري المباشر عن أرضهما الى دولة حاجز مفكّكة هي لبنان .

اعادة تعويم الخطوط الحمر جاءت فاقعة في الاقتراحات والعروض الدولية والاميركية والاسرائيلية وبالوقائع الميدانية. تشويش الزوارق الإسرائيليّة على اتصالات الجيش اللبناني خلال حرب الجبل تثبت التواطؤ السوري -الاسرائيلي .وقبيل الانسحاب المفخّخ طرح الاسرائيليون ما سمّاه الرئيس الجميل كورنة (نسبة الى كوريا) الوضع من خلال إقامة خطّ تماس عسكري عند نهر الأولي يقسم البلد الى منطقتين: واحدة تحت سيطرة السوريين وأخرى تحت سيطرة اسرائيل بقيادة سعد حدّاد، ويكون الشوف منطقة عازلة. وفي أيار ١٩٨٤ نقل مساعد الأمين العام للأمم المتحدة برايان اوركهارت الى الرئيس الجميل اقتراحاً من اسحق شامير يقضي بانتشار وحدات اليونيفيل في البقاع الغربي للفصل بين القوات الإسرائيليّة والسورية وإقامة منطقة عازلة على غرار الشوف. وتكرّر العرض في مفاوضات الناقورة سنة ١٩٨٥، مضافاً اليه اقتراح أميركي -دولي بنشر اليونيفيل المعزّزة حول المخيمات الفلسطينية في الجنوب.

تقاسم لبنان وتقسيمه تطوّر في ظلّ الخطوط الحمر بورقة مكتوبة لديفيد كيمحي، عرض فيها انسحاباً مشروطاً بترتيبات أمنية في الجنوب مع ضمان انسحاب سوري باستثناء المنطقة الممتدّة من انفه شمالاً الى دير الأحمر شرقاً حتى الحدود السورية. وتوسّع كيمحي شارحاً، إنّهُ بهدف الحفاظ على الهيمنة المسيحية سوف تتخذ إجراءات قانونية لتحويل لبنان الى نظام كانتونات مكوّن من واحد مركزي ذي اكثرية مسيحية يضمّ العاصمة ومقر الحكومة، وكانتوناتٍ اخرى تبعاً لتركيبة السكّان بالاضافة الى كانتون تحت السيطرة الإسرائيلية بإدارة سعد حدّاد.

الوهم الأميركي كان الاختبار المرّ الذي عانى منه الرئيس الجميل لدرجة أنّه قال للموفد ريتشارد مورفي: هل الولايات المتحدة معتادة معاقبة اصدقائها؟

تدرّج حماس الرئيس ريغان من الدعم شبه المطلق في القمّة الاولى مع الجميل في خريف ١٩٨٢ الى تراجع مفاجيء في القمّة الثانية في تمّوز ١٩٨٣. فوجيء الرئيس اللبناني بالرئيس الأميركي يستقبله بإعطائه نسخة عن رسالة الى حافظ الأسد وشقيقه رفعت لشكرهما على المساعدة في تحرير رئيس الجامعة الأميركية في بيروت دايفيد دودج الذي كان خطف في تمّوز ١٩٨٢. أمّا الباقي من المباحثات فدعا اللبنانيين الى اعتبار اتفاق ١٧ أيار ورقة مهمّة لكن تصرّفوا على أساس أنّها شيك غير موجود. وبلغ التخلّي الأميركي حدّاً وصل الى ان ينقل الديبلوماسي ريتشارد فيربانكس الى الرئيس الجميل رسالة إسرائيلية تطالب بمنح الدروز في الشوف وضعاً خاصاً. وفي حال الموافقة، ففي وسع اسرائيل استخدام نفوذها لدى الطائفة الدرزية لوقف المعارك في الجبل .

هكذا أحدث قصف المدمّرة نيوجرسي غباراً لا أضراراً، فيما كان السفير الأميركي يهرول الى ملجأ قصر بعيدا لاحتماء وفي وصف درامي للسلوك الأميركي، كتب وزير الدفاع الأميركي كاسبار واينبرغر في مذكراته عن الوضع عشية الانسحاب: كأننا نشهد جلاء الجيش الأميركي من فييتنام، ويعود إليّ ان أسلم الى الرئيس الجميل الرسالة المحزنة. تلك كانت المهمّة الأكثر إيلاماً التي أدّيتها في حياتي، لكن لم أكن اعلم أنّ التحرّر من الالتزام الأميركي كان نهائياً.

هكذا وجد الجميل نفسه وحيداً في مواجهة اسرائيل وسوريا المدعومة من موسكو التي ابلغ سفيرها سولداتوف الرئيس اللبناني بأنّ الأميركيين سيدفعون غالياً جدّاً ثمن عدم التعاون معنا .

لقد كان هدف الولايات المتحدة تحقيق الحوار الاستراتيجي الأميركي -السوري من خلال لبنان وعلى حسابه. وكان حافظ الأسد يتمسك بإستراتيجيته نفسها منذ مطلع الحرب اللبنانية وهي السيطرة على الورتين اللبنانية والفلسطينية للتفاوض باسمهما في اي محادثات سلام ومع الأميركيين.

في ذروة حرب اتفاق ١٧ أيار قال الأسد للوسيط الملكي السعودي الامير بندر بن سلطان: الأميركيون اغبياء لأنهم ربطوا الاتفاق بالانسحاب السوري وبذلك حلّوا مشكلة سوريا. وهذا ما أعاد البحث الى المربع الأول الذي تحدّث عنه الأسد الى الرئيس الجميل في اللقاء الأول بينهما في نيودلهي سنة ١٩٨٣ اذ قال إنّ وجود جيشه في لبنان نوع من التوازن الاستراتيجي بين سوريا وإسرائيل. وتحت ستار هذا التوازن، سعى الى تحقيق المشاريع السورية التاريخية في لبنان عبر اللعب على التناقضات الطائفية واستخدام الحلفاء اللبنانيين والإقليميين.

كانت العلاقات المميزة هي الثمن السوري لإنهاء الحرب في لبنان، وكانت الإصلاحات او المطالب الاسلامية بإعادة توزيع السلطة بين الطائف هي الذريعة والوسيلة. وقد تجسّد ذلك في الاتفاق الثلاثي الذي خاطر برفضه الرئيس الجميل وساهم بإسقاطه رغم الحياد الأميركي السلبي حياله، اذ اعتبر السفير بارثولوميو أنّ الاتفاق يجلب للبنان هدوءاً نسبياً لكنّه مضرّ بمستقبله.

بعدها عادت سوريا الى بيروت واقتلعت حلفاء عرفات ونفوذ في المخيمات وأمسكت بالحلفاء والاعداء وكشف الوزير فاروق الشرع لايلي سالم، مطامع سوريا بشكل فجّ سنة ١٩٨٧ قائلاً: السيادة ماذا تعني؟ على لبنان ان يعهد فيها الى سوريا. نريد ان نعقد تحالفاً استراتيجياً طويل الامد. نريد ان تكون لنا كلمة في اختيار السياسيين الذين يحكمون لبنان. امّا الجيش السوري، فعليكم ان تفهموا أنّ وجوده هو بصفة دائمة وعلى لبنان ان يتنازل عن جزء من سيادته. تعلمون أنّ الوطن اللبناني لم يكن له يوماً وجود فعلي، بل هو من مخلفات الاستعمار التي حان الوقت لاستئصالها.

كان أمين الجميل الذي وصفه جا لارتيغي في باري ماتش بأنه الرجل الاخطر في العالم، يواجه وحيداً الخيانات والخيبات والانقلابات والانتفاضات. كان عليه ان يدير ما هو غير قابل للإدارة، وان يفاوض على ما هو قابل للتفاوض، وان يجسّد وحدة اللبنانيين غير الموحدّين. كان عليه أيضاً ان يناور مع الأسد الذي جعله بلطفه الزائد ودمائته على عكس ممثله الفظّ والمتعالي خدام، ان يتسلّق الجلجلة على درب مفروشة بالورود. وكان يعرف أنّ الخوف من ثمن التسوية مع سوريا لا يقلّ عن الخوف من ثمن الحرب .

تلطّى كثيرون وراء رفضه وصلابته. المفتي الراحل حسن خالد وكذلك القيادات السنيّة. وليد جنبلاط اعتمد على وطنية أمين الجميل لاسقاط الاتفاق الثلاثي. وفي لقاء مع ايلي سالم في آب ١٩٨٥ في المختارة قال: أوّيد الشيخ أمين في موقفه، فهو حتى الآن لم يطلب الدخول السوري. اهدافي تختلف عن أهداف حلفائه، فالشيعة يريدون نظاماً جديداً برئاستهم وهذا امر خطير جداً. الطموحات الدينية للشيعة قد تجعل لبنان ايران اخرى. املي ان يحافظ الشيخ أمين على أعصابه ولا يعطي السوريين اكثر ممّا يريدون.

كان جورج جورج اورويل يقول: أنّ القديسين مذنبون حتى يثبتوا براءتهم.

لم يدّع أمين الجميل القداسة وان كان أخصامه البسوه رداء الشيطنة طويلاً. هو اليوم قدّم مرافعته للتاريخ بالوثائق والمحاضر. قد يواصل الناس ترداد ما حفظوه غيباً وفق الوشائيات والشائعات والتخيّلات. لكنّ لا الذين قالوا أنّ عهده كان عنوان الفرص الضائعة، حاولوا قراءة الظروف الداخلية والخارجية وموازين القوى المتبدّلة، ولا هو استطاع إقناع احد أنّه غامر باللعب فوق الخطوط الحمر معتمداً على الأميركيين والغرب وبعض العرب. وعندما اخفق واسقط اتفاق ١٧ أيار بعدم إبرامه، انتقل من مغامرة إنقاذ لبنان الى دور الحفاظ على لبنان كما عرفه .

حاصرته استحالة عودة لبنان الموحدّ، ورفض حالة لبنان المقسّم، فأرغم على القبول بلبنان الممكن القائم على توازن الدويلات والاحتلالات مع حقّ النقض والرفض الذي تمسّك به الرئيس باسم الشرعية والمؤسسات.

لم يستطع أمين الجميل كسر الخطوط الحمر الإقليمية والدولية، لكنّه أبقى خطوطه مفتوحة مع الجميع، كما لم يقبل تجاوز خطوط حمرٍ داخلية والتورط بلعبة دم أهلية.

فبعد غياب الشيخ بيار الجميل الذي وازن بين الوقوف الى جانب نجله الأكبر رئيس الجمهورية، وحماية إرث نجله الأصغر، القوات اللبنانية، تحنّب الشيخ أمين الاصطدام بجموح الطموحات القاتلة للقيادات المسيحية المتنافسة.

اخبره السفير الأميركي جون كيلي أنّ العماد ميشال عون يحضّر انقلاباً عشية الاستحقاق الرئاسي سنة ١٩٨٨، فلم يهتزّ. وارسل اليه الرئيس سليم الحص ووزي الدفاع عادل عسيران مرسوم اقالة العماد عون من قيادة الجيش، فلم يوقّع .

بعد انتفاضة القوات اللبنانية سنة ١٩٨٥ ، عرض عليه الرئيس حافظ الأسد إرسال وحدات القوات الخاصة السورية لقمع التمرد لمصلحة الشرعية في عملية تنظيف محدّدة، فرفض.

رفض أيضاً المقايضة بين السلطة والقضية. فلم يضعف امام اغراء ما نقله الوسيط مهدي التاجر في أيلول ١٩٨٦ عن حافظ الأسد الذي قال: يا مهدي، أنا اكنّ مودّة خاصة للشيخ أمين. اذا توصلنا الى اتفاق معه، فسأتي بالعجائب، ويمكن ان يبقى زمناً طويلاً رئيساً للبنان ويدخل التاريخ من الباب الواسع .

كانت ولاية أمين الجميل آخر محاولة لاحياء الجمهورية الاولى بتوازاناتها وثنائيتها الطائفية. وكانت أيضاً ميداناً للتصفيات الاخيرة في حروب الدروز والموارنة المستمرة منذ القرن التاسع عشر . لكنّها أسست لكلّ التحوّلات اللاحقة بدءاً بالصعود الشيعي والتغلغل الإيراني وتشبّت السلطة وتوزيعها على أمراء الحرب في مجلس الوزراء على حكومة ١٩٨٤ التي كانت أشبه بمجلس رؤساء لا مجلس وزراء . أمّا ستاتيكو الخطوط الحمر فلم ينكسر بالكامل إلا بالانسحاب السوري سنة ٢٠٠٥ بفعل القرار الدولي ١٥٥٩ لتحلّ محلّه معادلة إقليمية اخرى هندسها حزب الله .

لقد طغت على الادبيات السورية في السنوات الاخيرة عبارة: الرجل الذي لم يوقّع: تعريفاً بالرئيس حافظ الأسد الذي لم يتنازل لإسرائيل . على أنّ الملكية الفكرية والسياسية يجب ان تبقى محفوظة مع مفعول رجعي للرئيس الجميل .

حذّره شارون من أنّه لن يدعه يحكم ابعد من قصر بعبدا، ولم يوقّع .

قصف السوريون وحلفاؤهم قصر الرئاسة ما دفع الفرنسيين والأميركيين لوضع خطة عسكرية لإجلائه، ولم يوقع .

حاولوا اغتياله في صيدا سنة ١٩٨٥ وبتفخيخ الطائرة الرئاسية سنة ١٩٨٨، ولم يوقع .

قدّم له العسل السوري ممزوجاً بالسمّ ولم يوقع .

طعن من أهل البيت واحسّ سكيناً يتنزّه في الجرح، ولم يوقع .

نقل اليه جورج شولتز في حزيران تهديد الأسد بأنّ المسيحيين سيكونون في حال صعب جداً وأنّ مرفأً جونه سيقصف اذا لم يقبلوا بالتسوية السورية، ولم يوقع.

رفض شولتز اعطاءه ضمانات في اجتماع لارنكا في نيسان ١٩٨٨، ولم يوقع. كما نصحه القائم بالاعمال الأميركي ماكنمارا بالاختيار بين النظام السوري وفوضى حزب الله، فلم يرضخ رغم أنّ الديبلوماسي الأميركي ابلغه أنّ واشنطن تريد ان تسوي القوات السورية وضعتها القانوني في لبنان وأنّ اسرائيل تريد من سوريا ان تضبط حزب الله.

قال سكوت فيتزجيرالد: أعطوني بطلاً وسأكتب لكم تراجيديا. امين الجميل ولد وعاش وحكم وشاخ في قلب

تراجيديا عامة وخاصة، من دون ان يغريه دور البطل . ارتدى دور المقاوم: أنا أقاوم إذأ أنا موجود. لكنّ تعثر بين القدر والقدرة. القدر الظالم والقدرة المكبلة .

تصنع الاقدار معظم الرجال، ويصنع بعض الرجال أقدارهم. امين الجميل عجنه قدر الوطن والحزب والعائلة، فلاعب الاقدار الثلاثة محتفظاً بصورته عن نفسه:

مقاوم ومحاور، عنيد ومرن، ثابت في الجوهر ومتساهل في الهامش ودائماً في خدمة لبنان.